

## الأدب المصري في عصر الدولة الطولونية (254-292هـ)

عمل أحمد بن طولون<sup>(1)</sup> منذ أن تولى مصر سنة 254 هـ على أن تكون خالصة له دون العباسيين، وما زال يعمل من أجل هذا الهدف حتى تم له ما أراد، وقد هيأت الظروف له ذلك؛ فلقد كانت بغداد في تدهور، وكان الخلفاء في انقسام، وقد اتسع ملك ابن طولون حتى شمل مصر والشام والحجاز واليمن، وكان همه الأكبر إصلاح مصر حتى يزيد خيرها ويرفح حالها؛ ولذلك تقدمت الحضارة في عهده كما تقدمت في عهد أسرته، وراح الطولونيون يصرفون ببذخ وإسراف، وعم ذلك مظاهر الحياة كلها.

### أ- الشعر

نشط الأدب عامة والشعر خاصة في عصر الدولة الطولونية، ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب، منها:

1- ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى دويلات أدى إلى تنافس الأمراء على تشجيع الأدباء والشعراء، واتخاذهم وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم، وقد تنافس الشعراء في خدمة الأمراء، ومن سعى إليه الشعراء في ذلك الوقت وتنافسوا في خدمته، أحمد ابن طولون وأسرته.

2- كان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ وثراء، يعطون الأموال، ويهبون الهبات، ويغدقون الأعطيات، ويستقدمون الشعراء، ويقربونهم إليهم، وقد أدى ذلك إلى أن يتحول قصرهم إلى بلاط شعري كبير، ينافس البلاط الأدبي العباسي.

(1) انظر: في ترجمته وسيرته: سيرة أحمد بن طولون، البلوي، تحقيق: محمد كرد علي، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة 1999م؛ المغرب، ابن سعيد، تحقيق: د. شوقي ضيف وآخرين، من ص 73 إلى ص 146، وفيات الأعيان، ج 1، ص 95.

وقد اجتمع في مصر - آنذاك - عدد كبير من الشعراء الذين عاشوا منعمين مترفين، يقصدون الطولونيين مادحين، ويغدون عليهم طالين.

3- الاستقرار السياسي، الذي أدى إلى استقرار وازدهار الحضارة، واستقرار الحالة الاجتماعية، والذي كان سبباً في استقرار نفسية الشعراء، وتعبيرهم عن هذه المظاهر الحضارية التي أصبحت مادة خصبة لخيالهم، ومجالاً لتصوراتهم، ومغذى لتأملاتهم. ويكفي أن نشير هنا إلى أن الطولونيين قد اهتموا ببناء الدور والقصور والميادين اهتماماً بالغاً، إلى درجة أن المقريري يروي عن أبي الخطاب بن دحية في كتاب النبراس، من أن قطائع ابن طولون كانت نيفاً على مائة ألف دار نزهة للناظرين، محدقة بالجنان والبساتين<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن نجمل مظاهر نشاط الأدب وازدهاره في هذا العصر في شيئين اثنين، هما: الكثرة والتفوق.

ونعني بالكثرة: كثرة الشعراء، سواء من كان منهم خالص المصرية، ومن كان وافداً على مصر، ودليل هذه الكثرة ما يحكيه المقريري عن القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي في كتابه "حسن السيرة في اتخاذ حصن بالجزيرة"، قال: "رأيت قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة، فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون، قال: فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة، كم يكون شعرهم؟"<sup>(2)</sup>. ونحن نضيف من جانبنا تساؤلاً آخر، هو: كم يكون عدد هؤلاء الشعراء؟

وتتمثل الكثرة فيما عثرنا عليه من شعر، فلقد كنا في العصور السابقة نتحسس الطريق إلى النص الواحد، ونشكو من عدم النصوص أو قلتها، أما في هذا العصر فقد وجدنا القطع الشعرية تترى، والقصائد تتوالى.

وأما التفوق فنعني به جودة النص من حيث المعنى والأسلوب وقوة التراكيب.

(1) خطط المقريري، ج 2، ص 124، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، سنة 1996م.

(2) خطط المقريري، ج 2، ص 124.

وكما كثر الشعراء وكثر شعرهم، وطالت قصائدهم، وقويت نصوصهم وجادت، فقد ظهرت على شعرهم ظاهرة جديدة، هي التنوع، ونعني بذلك تنوع الأغراض الشعرية؛ فلقد استمر شعراء هذه الفترة ينظمون في الأغراض الشعرية القديمة التي كانت في العصور السابقة، وبدأوا ينظمون في أغراض أخرى جديدة، لم نعرف لها وجودًا سابقًا في الشعر المصري، وسوف نلمح إلى بعض من هذه الأغراض القديمة والجديدة فيما يلي:

### الأغراض الشعرية في العصر الطولوني:

#### أ- أبرز الأغراض القديمة:

##### 1- المدح:

رأينا الشعراء في العصور السابقة يمدحون لغير غرض مادي في بداية الأمر، ثم ظهر من الشعراء من احترف المدح احترافًا، وفي عصر الدولة الطولونية ازداد هؤلاء المحترفون المتكسبون، وقد تتبع هؤلاء المتكسبون أعمال أحمد بن طولون وابنه خمارويه، فسجلوها في مدائحهم، واستطاعوا بذلك أن يعطونا صورة كاملة عن ابن طولون وتفكيره ومنشأته، والأحداث المهمة التي وقعت في عهد الطولونيين، وقد فعل ذلك من كان مخلصًا للدولة الطولونية، مثل إسماعيل بن أبي هاشم، ومن كان همه العطاء، مثل قعدان بن عمرو.

وقد يصعب علينا أن نميز بين المخلصين للطولونيين وغير المخلصين، ولكننا حينما نرى شاعرًا مثل ابن أبي هاشم يمدح الطولونيين، ويسكت عن مدح العباسيين الذين قضاوا على الدولة الطولونية، ثم يمدح ابن الخليجي الذي ثار على العباسيين ورد الدولة الطولونية ثانية، نحكم عليه بالإخلاص.

وإذا رأينا غيره من مداح الدولة الطولونية، يمدحون قواد الجيش العباسي حين يتغلبون على الدولة الطولونية، مثل أحمد بن محمد الحبشي، نحكم عليهم أنهم متكسبون، لا يهمهم من يقدمون لهم المدائح.

والحق أن جمعًا غفيرًا من الشعراء قد التف حول ابن طولون وخلفائه، وأخذوا يمدحونه ويسجلون أعماله، حتى إنه لم يأت بعمل إلا ظهر في شعرهم؛ لأنه - في رأيهم -

جدير بالتسجيل، ومثال ذلك قول قعدان بن عمرو، حينما خلع أحمد بن طولون الموفق عن ولاية العهد:

طَالَ الْهُدَى بَابِنِ طُولُونَ الْأَمِيرِ كَمَا	يَزْهُو بِهِ الدِّينُ عَن دِينِ وَإِسْلَامِ
قَادَ الْجِيُوشَ مِنَ الْفُسْطَاطِ يَقْدُمُهَا	مِنْهُ عَلَى الْهَوْلِ مَاضٍ غَيْرِ مُجْجَمِ
فِي جَحْفَلٍ لِلْمَنَايَا فِي مَقَانِيهِ	مَكَامِنٌ بَيْنَ رَايَاتٍ وَأَعْلَامِ
يَسْمُو بِهِ مِنْ بَنِي سَامٍ غَطَارِفَةٌ	بِيضٌ وَسُودٌ أَسْوَدٌ مِنْ بَنِي حَامِ
حَاطَ الْخِلَافَةَ وَالِدُنِّيَا خَلِيفَتَنَا	بَصَارِمٍ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ صَمَّصَامِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ هُبُّوا نَاصِرِينَ لَهُ	مَعَ الْأَمِيرِ بَدُّهُمْ الْخَيْلِ فِي اللَّامِ (1)

فالشاعر هنا يمدح ابن طولون بالدين والشجاعة وحسن القيادة والسياسة، ويثني عليه وعلى أفعاله، ويدعو الناس إلى نصرته والدفاع عنه، وهذا المدح يحمل في طياته تأييداً لسياسة ابن طولون، وتبشيراً بحسن سيرته، ويمكن القول إن هذا نوعاً من المدح السياسي، الذي يواكب الأميري، ويؤيد سياسته، ويدعو إلى الوقوف بجانبه.

ومن هذا المديح السياسي، قول منصف بن خليفة الهذلي في مدح أحمد بن طولون أيضاً:

يَا غُرَّةَ الدُّنْيَا الَّذِي أَفْعَلُهُ	عُرَّرَ هَاكُلُ الْوَرَى تَتَعَلَّقُ
أَنْتَ الْأَمِيرُ عَلَى الشَّامِ وَثَغْرِهَا	وَالرَّقَّتَيْنِ وَمَا حَوَاهُ الْمَشْرِقُ
وَإِلَيْكَ مِصْرٌ وَبَرْقَةٌ وَحِجَارُهَا	كُلُّ إِلَيْكَ فَوَادُهُ مَتَشَوِّقُ
أَسْيَافُنَا بِيضُ الْمَنُونِ فَلَيْتَهَا	بَنَجِيعٍ مَنْ خَذَلَ الْإِمَامَ تُخَلِّقُ
تُمْسِي وَتُصْبِحُ ضَارِبًا مِنْ دُونِهِ	بِمُهْنَدٍ مِنْهُ الْحُتُوفُ تُفَرِّقُ (2)

(1) الولاية والقضاة، ص 227.

(2) الولاية والقضاة، ص 228.

ويمكن أن نعد قول القاسم بن يحيى المريمي في مدح خمارويه، حين انتصر على جيش الخلافة، ووصل إلى سامراء، من المديح السياسي أيضاً:

أَتَانَا أَبُو الْجَيْشِ الْأَمِيرُ بِيَمْنِهِ      فَشَرَّدَ عَنَّا الْجُورَ وَافْتَقَرَ الْعُسْرُ  
فَإِنْ تَكُ أَرْضُ الرَّقَّتَيْنِ بِهِ اِكْتَسَتْ      ضِيَاءً وَإِشْرَاقًا لَقَدْ أَظْلَمَتْ مِصْرُ  
وَلَمَّا رَأَى الْجَيْشَ ابْنَ كِنْدَاجٍ مُقْبِلًا      أَرْتَهُ الْمَنَابِيَا الْحُمُرَ أَعْلَامُهُ الْحُمُرُ  
فَوَلَّى شَرِيدًا ذَا ارْتِيَاعٍ كَأَنَّهُ      بِكُلِّ بِلَادٍ طَائِرٌ مَالَهُ وَكُرُ  
لَعْنٌ سَرَّ إِسْحَاقَ النَّجَاةُ بِنَفْسِهِ      لَقَدْ سَاءَ فِي جَمْعِهِ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ<sup>(1)</sup>

وقد أوقف هذا الشاعر شعره على مدح خمارويه، وقال فيه كل مدائح، حتى سئل مرة أن يرحل عن مصر، فقال مفصّحاً عن حبه لخمارويه:

يَقُولُونَ لِي مَا بَالُ رَحْلِكَ دَائِمًا      بِمِصْرَ وَأَيُّ لَسْتُ عَنْ غَيْرِهَا أَرْضِي  
وَكَيْفَ رَحِيلِي عَنْ بِلَادٍ غَدَا بِهَا      أَبُو الْجَيْشِ وَالنَيْلُ الَّذِي مَلَأَ

ونستطيع أن نقول إن المدح قد وصل إلى قمته حين أطاح العباسيون بالدولة الطولونية؛ حيث تحول المدح إلى نوع جديد من الشعر وفن من فنونه لم نجد له من قبل نظيراً، وسوف نلمح إليه فيما بعد.

## 2- الهجاء:

وجد هذا الفن الشعري متصلًا بأحداث المجتمع، وكما أمكننا وصف المدح بأنه مديح سياسي، يمكن أيضاً أن نطلق على الهجاء بأنه كان هجاء سياسياً.

(1) الولاية والقضاة، ص 236، 237؛ وانظر: المريمي شاعر العصر الطولوني، جمع ودراسة: هلال ناجي، ضمن

ديوان الحسن بن علي، ط دار الجليل سنة 1991.

(2) المغرب، ج 1، ص 136.

ويتمثل هذا النوع من الهجاء عند شاعر واحد، هو محمد بن داود، الذي رفع علم المقاومة، ووقف لأحمد بن طولون خاصة بالمرصاد، وتتبع كل عمل من أعماله، ففسره أسوأ التفسيرات، وصب على الرجل جام الغضب واللعنات، ورماه بأقبح الصفات، ومن ذلك أن أحمد بن طولون أمر ببناء مسجد ومارستان، فقال محمد بن داود - يهجوهُ ويستثير الناس عليه:

أَلَا أَيُّهَا الْأَغْفَالُ إِيَّاتَا مَلُّوا      وَهَلْ يُوقِظُ الْأَذْهَانَ غَيْرُ التَّامُّلِ  
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ ابْنَ طَوْلُونَ نَقْمَةٌ      تُسَيِّرُ مِنْ سُفْلِ إِيكُمْ وَمِنْ عَلِ  
وَلَوْلَا جَنَايَاتُ الذَّنُوبِ لَمَا عَلَتْ      عَلَيْكُمْ يَدُ الْعِلْجِ السَّخِيفِ الْمُجْهَلِ  
فَكَمْ ضَجَّةٍ لِلنَّاسِ مِنْ خَلْفِ سِتْرِهِ      تُضَجُّ إِلَى قَلْبٍ عَنِ اللَّهِ مُغْفِلِ (1)

ومن هجاء ابن داود لأحمد بن طولون - لما اتخذ الحصن في الجزيرة - قوله:

بَنَى الْجَزِيرَةَ حِصْنًا يَسْتَجِنُّ بِهِ      بِالْعَسْفِ وَالضَّرْبِ وَالصَّنَاعِ فِي تَعَبِ  
لَهُ مَرَكَبٌ فَوْقَ النَّيْلِ رَاكِدَةٌ      فَمَا سِوَى الْقَارِ لِلنَّظَارِ وَالخَشْبِ  
يُرَى عَلَيْهَا لِبَاسُ الذُّلِّ مُذْبُنِيَّتْ      بِالشَّطِّ مَمْنُوعَةٌ مِنْ عِزَّةِ الطَّلَبِ  
فَمَا بَنَاهَا الْغَزْوِ الرُّومِ مُحْتَسِبًا      لَكِنْ بَنَاهَا غِدَاةَ الرَّوْعِ لِلهَرَبِ (2)

وظل ابن داود يهجو ابن طولون حتى توفي الأخير، ومع ذلك لم يقلع عن هجائه؛ بل رماه بعد وفاته بأشد أنواع الهجاء، ولم يتورع عن ذلك، بل شنعه به تشنيعاً فظيعاً، ومن ذلك قوله:

عَرَّجَ عَلَى الْيَحْمُومِ فَا نَزَلَ بِهِ      فَاسْلَحَ عَلَى قَبْرِ ابْنِ طَوْلُونَا

(1) الولاية والقضاة، ص 216، 217.

(2) الولاية والقضاة، ص 218، 219.

وَقُلْ لَهُ يَا شَرَّ مُسْتَوْدِعٍ      أَخْفَى لِدَمْعِ الْقَلْبِ مَلْعُونَا  
يا حفرة النذار التي أضرمت      وظلَّ فيها الرَّجْسُ مَدْفُونَا  
لا تجعل لي لئسَةً جُثمَانِه      إِلَّا الْأَفَاعِي وَالشَّعَابِينَا<sup>(1)</sup>

وقوله:

مَضَى غَيْرَ مَفْقُودٍ وَمَا كَانَ عُمُرُهُ      سِوَى نَقْمَةٍ لِلخَلْقِ شَنْعَاءَ صَيْلِمِ  
لقد زيد في اليعموم بالرَّجْسِ لعنةً      ولم يُسَقِّ بِالْمَرْجُوسِ تُرْبُ المَقْطَمِ  
ولم تَبْكِهِ الْأَرْضُونَ لَكِنْ تَبَسَّمَتْ      سُورًا وَلَوْلَا مَوْتُهُ لَمْ تَبَسَّمِ  
يُبَشِّرُهُ إبليسُ عِنْدَ قُدُومِهِ      عَلَيْهِ بِأَحْمَى بُقَعَةٍ فِي جَهَنَّمَ  
فلا سُقِّيتْ أَجْدَانُهُ صَوْبَ مُزْنَةٍ      وَأَنْتَى وَفِيهَا شَرُّ أَوْلَادِ آدَمِ<sup>(2)</sup>

والحق أننا لا ندري سبباً لهذا الهجاء كله، والذي لا نكاد نعرف له مثيلاً في الهجاء العربي؛ فلقد كان الشعراء يتورعون عن هجاء الموتى أمام حرمة الموت، ولكن محمد بن داود - كما نعتقد - كانت بينه وبين ابن طولون خصومة حامية، فلم يكفه أن يظهر فرحه لموت ابن طولون؛ بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها، مما يدل على أن المصريين في هذا العصر قد اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء الموتى، وهو الأمر الذي لم نجده في شعرهم قبل هذا العصر، "ولعل ابن داود كان موتوراً أو ساخطاً أو محروماً أو مأجوراً، فحمل هذه الحملات العنيفة على ابن طولون في حياته وبعد مماته"<sup>(3)</sup>.

(1) الولاية والقضاة، ص 232.

(2) الولاية والقضاة، ص 233.

(3) الأدب العربي في مصر، عبد الرزاق حميدة، ص 239.

## ب- أبرز الأغراض الجديدة:

1- وصف مجالس اللهو والشرب<sup>(1)</sup>:

إذا تركنا الشعر الذي فرضته الأحداث على الشعراء، والتفتنا إلى هذا اللون من الشعر الذي يمكن أن نطلق عليه الشعر الذاتي، والذي لم نكد نعثر على شيء منه في العصور السابقة - وجدنا هنا منه وفرة وتنوعاً، مثل شعر الخمريات، ووصف مجالس اللهو والطرب، ومع هذا الشعر نجد مجموعة من القصائد والأبيات التي تصور الطبيعة المصرية.

ونستطيع أن نقول إن شعر الخمر وشعر الطبيعة يختلطان اختلاطاً كبيراً؛ بحيث يتعذر الفصل بينهما في أكثر الأحيان، وسبب ذلك أن الأديرة التي كانت تقام فيها مجالس الطرب والعبث، كانت تبنى في ظاهر المدن، بعيدة عن الحياة اليومية، وتختار لها المواضع التي يمكن أن تستغل في الزراعة والحدائق والبساتين، وقد استغلها الشعراء في التنزه والتمتع بالجمال والإقبال على اللهو، فكان الدير موضعاً لشرب الخمر، وكان يقع في بقعة جميلة، فاختلط وصف هذه بتلك.

وهذا الشعر الذي وصف مجالس اللهو، نرى فيه الاستهتار، واطراح كلف الحياة جانباً، والإقبال على الشراب، والأنس بالأحباب، ووصف الكئوس، وفعلها بالرءوس، ومعاطة الندماء، والغزل بالطباء.

وفي الحق أن هذا الشعر لا يوجد إلا حين يكثر الترف، ويجتري الناس على الدين، وتفترق القدوة، وقد ساعد عليه بذخ الأمراء وإسرافهم، وأخذهم بحياة النعيم، وشرب الخمر والإسراف فيها، وسماع الغناء، ومما يؤثر عن ابن طولون أنه كان يبكر كل يوم، فيخرج لسماع قراءة الأئمة في المحراب، وكان مع ذلك يشرب الخمر، ويسمع الغناء، ويقرب المغنين<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: شعر الديارات في مصر من العصر الطولوني إلى العصر الفاطمي، د. غريب محمد علي، مجلة آداب حلوان، عدد 9، 10، سنة 2001.

(2) انظر: سيرة أحمد بن طولون، ص 348؛ وانظر: الأذكياء لابن الجوزي، ص 49.

وكان خمارويه يذهب كثيراً إلى دير القصير؛ إذ بنى لنفسه غرفة في أعلاه<sup>(1)</sup>، وكان الشعراء يذهبون إلى هذه الأديرة، ويذكرون طيب هوائها، ويصفون نزعتهم ولهوهم ومجونهم، ويصفون المغنيات الجميلات، ويخطبون ودهن، وتنشأ بينهم علاقات فاسدة، يتحكم فيها الهوى وتحكمها الغرائز، ومن أمثلة ذلك الشعر الذي وصف هاتيك المجالس، قول الناشئ الأكبر (أبو العباس عبد الله بن محمد، ت سنة 293هـ) في جارية مغنية جميلة:

فَدَيْتِكَ لَوْ أَنَّهُمْ أَنْصَفُوكِ      لَرَدُّوا النَّوَاطِرَ عَنِّي نَاطِرِيكَ  
تَرُدِّينَ أَعْيُنَنَا عَن سِوَاكِ      وَهَلْ تَنْظُرُ الْعَيْنُ إِلَّا إِلَيْكَ  
وَهُمْ جَعَلُوكِ رَقِيبًا عَلَيْنَا      فَمَنْ ذَا يَكُونُ رَقِيبًا عَلَيْكَ  
أَلَمْ يَقْرَأُوا وَيُحْهِمُ مَا يَرُونَ      مِنْ وَحْيِ حُسْنِكَ فِي وَجْتِيكَ<sup>(2)</sup>

وللناشئ الأكبر شعر في الطرد والقنص والصيد، وطردياته على أسلوب طرديات أبي نواس.

ومن الشعراء الذين نجد في شعرهم ما يدل على سريان هذا التيار أبو جعفر بن أيوب، ودليلنا على ذلك قوله عن مجلس العباس بن أحمد بن طولون:

وَلَقَدْ قُلْتُ لِلْأَخْلَاءِ يَوْمًا      قَوْلَ سَاعٍ بِالنُّصْحِ لَوْ سَمِعُوهُ  
إِنَّمَا مَجْلِسُ الْمُدَامِ بِسَاطٍ      لِلْمَوَدَّاتِ بَيْنَهُمْ وَضَعُوهُ  
فَإِذَا مَا أَنْتَهَوْا إِلَى مَا أَرَادُوا      مِنْ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ رَفَعُوهُ<sup>(3)</sup>

(1) انظر: الديارات للشابشتي، تحقيق: كوركيس عواد، ص 284، ط ثانية، المعارف، بغداد، سنة 1966م.

(2) وفيات الأعيان، ج 2، ص 45.

(3) زهر الآداب، ج 2، ص 162.

وللعباس بن أحمد بن طولون شعر في هذا المجال - مجال الطرب والعبث واللهو ووصف الطبيعة - ومن ذلك الشعر قوله داعياً جهازاً إلى الشرب بين أحضان الطبيعة الجميلة، والتأمل في مجالها الحسان:

أشربُ عَلَى النَّيْلِ إِذَا مَا المَطَرُ      نُشْرِفِيهِ مِثْلَ نُشْرِ الدُّرِّ  
وانظُرْ إِلَى الرَّوَضَاتِ فِي شَطِّهِ      كَأَنَّهَا تَحْكِي عَلَيْهِ الطُّرَّ  
لَا تَسْقِينِي الكَأْسَ عَلَى ذِكْرِ مَنْ      عَبَابَ وَكَرَّرَ ذِكْرَ مَنْ قَدْ حَضَرَ (1)

ومعنى ذلك كله أن اللهو والمجون قد ظهرا في الشعر المصري، ولم يبال الشاعر المصري بالشعور الديني الذي كان يسود البلاد، ونعجب إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء كانوا على صلة وثيقة بالأمرأة؛ بل كان بعضهم أميراً، وهذا يدلنا على أن أمراء هذا العصر تهاونوا بالدين إلى حد أنهم سمحوا لأنفسهم وللشعراء المتصلين بهم أن يعبثوا بمثل هذه الأشعار.

والواقع أن الأمراء في هذا العهد أكثروا من الترف والنعيم، وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء الدولة العباسية في لهوهم ومجونهم.

## 2- رثاء الممالك (2):

وقف الشعراء من الطولونيين بعد زوال ملكهم موقفين؛ أحدهما: شامت فرح بما أصابهم، مرحب بمن أتى بعدهم، ممجد لفتوحهم، والثاني: حزين باك، يرثي دولتهم، ويتفجع لما حل بهم، ويثير الأشجان لنكبتهم، وقد مثلنا للنوع الأول بمحمد بن داود، أما النوع الثاني فهو الذي يهمننا هنا، وهو نوع لا نجد له مثيلاً في الشعر العربي إلا في شعر الأندلسيين، ومن يقرأ الشعر المصري إثر العصر الطولوني يجد أن هذا الفن كان معروفاً، وأن شعراء مصر أكثروا في الحديث عنه، فبعد أن دالت دولة الطولونيين، وعاد

(1) المغرب، ص 141.

(2) انظر: هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب: "دراسات في أدب مصر الإسلامية"، ج 1، د. غريب محمد علي.

الأمر إلى الخليفة العباسي، ودمرت القطائع، وخرب الميدان، قام الشعراء يرثون أيام الطولونيين وما بنوه، ويعددون مفاخرهم، ويصفون دورهم وبساتينهم وحدائقهم، ويأسفون على ما لحق هذه المنشآت من تدمير وتخريب، ويترحمون على الأيام الجميلة، والليالي الخوالي التي قضوها بين جنبات هذه المباني، وقد امتلأ شعرهم بالزفرات والحسرات على ما فعلته يد الحدثان بآل طولون، وما شادوا من قصور، وما كان لهم من ملك كبير.

لقد كان شعراً مملوءاً باللوعة والأسى والشجن، مفعماً بالبكاء والألم والأنين، ومن أرق المراثي التي وصلت إلينا، قصيدة لإسماعيل بن أبي هاشم، يتحدث فيها عما أصاب ميدان أحمد بن طولون، الذي كان من أهم مظاهر العظمة والحضارة الطولونية، وكانت دور وقصور الطولونيين تطل عليه، يقول ابن أبي هاشم:

قِفْ وَقِفَةً بِنَاءِ بَابِ السَّاجِ	وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرْفَاتِ وَالْأُبْرَاجِ
وَرُبُوعِ قَوْمٍ أُرْعَجُوا عَنْ دَارِهِمْ	بَعْدَ الْإِقَامَةِ أَيَّامًا إِزْعَاجِ
كَانُوا مَصَابِيحًا لَدَى ظُلْمِ الدُّجَى	يَسْرِي بِهَا السَّارُونَ فِي الإِدْجِ
وَكأنَّ أَوْجَهُهُمْ إِذَا أَبْصَرْتَهَا	مِنْ فِضَّةٍ مَصْبُوعَةٍ أَوْ عَاجِ
كَانُوا لِيَوْمًا لَا يُرَامُ حَمَاهُمْ	فِي كُلِّ مَلْحَمَةٍ وَكُلِّ هِيَاجِ
فَانظُرْ إِلَى آثَارِهِمْ تَلَقَى لَهُمْ	عَلَمًا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَفَجَاجِ
وَعَلَيْهِمْ مَا عَشْتُ لَا أَدْعُ الْبُكَاءِ	مَعَ كُلِّ ذِي نَظَرٍ وَطَرْفِ سَاجِ <sup>(1)</sup>

ولإسماعيل بن أبي هاشم أبيات من قصيدة أخرى، تفيض مرارة وحزنًا على ما أصاب بني طولون، يقول فيها:

يا منزلًا لبني طولون قد دثرًا      سقائك صرف الغواصي القطر والمطرًا

(1) الخطط، ج 2، ص 119؛ وانظر: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 140.

يا منزلاً صرْتُ أجفوه وأهجره      وكان يعدلُ عندي السَّمْعَ والبَصْرَ  
باللهِ عندك علمٌ من أحييتنا      أم هل سمعتَ لهم من بعدنا خبراً؟ (1)

ولمحمد بن طشويه قصيدة كلها ألم وأين وحزن وبكاء وحنين إلى أيام ابن طولون، وكلها حسرة على الميدان الذي خرب وراحت أيدي البلى تعصف به عصفاً، وتعبت بجوانبه عبثاً، يقول ابن طشويه:

أين الملوك التي كانت تحلُّ به      وأين من كان بالاثقان دبَّره؟  
وأين من كان يحميه ويجرُّه      من كلِّ ليثٍ يهابُ الليثَ منظره؟  
صاح الزمانُ بمن فيه ففرَّ قهَمُ      وخطَّ ريبُ البلى فيه فدَعَثَرَه  
كم كان فيه لهم من مشربٍ غدِقِ      فعبَّ صرفُ الردى فيه فكدره  
أين ابنُ طولونَ بانيه وساكنه      أماته الملكُ الأعلى فأقبره؟  
ما أوضح الأمر لو صحَّت لنا فكرٌ      طوبى لمن خصَّه رُشدُه فذكره (2)

ولا يمكن أن نترك هذا الفن دون الإشارة إلى قصيدة سعيد القاص، الذي ذكر فيها تاريخ الطولونيين، وأشاد بأفعالهم، مقدماً لنا العظة والعبرة من خلال عرض أسمائهم، ومخلداً أيامهم، يقول سعيد القاص:

جرى دمعُه ما بين سحرٍ إلى نحرٍ      ولم يجرِ حتَّى أسلمته يدُ الصبرِ  
وهل يستطيع الصبرُ من كان ذا أسى      يبيتُ على جمرٍ ويضحى على جمرِ  
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها      بفقْدِ بني طولونَ والأنجمِ الزهرِ  
فبادوا وأضحوا بعد عزٍّ ومنعةٍ      أحاديثٍ لا تحفى على كلِّ ذي حجرِ

(1) الخطط، ج 2، ص 122.

(2) الخطط، ج 2، ص 121؛ وانظر: النجوم الزاهرة، ج 3، ص 141؛ وانظر: الولاة والقضاة، ص 264.

وكان أبو العباس أحمد ماجداً      جميل المحيّا لا يبيت على وترٍ  
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته      كما قام ليث الغاب في الأسل السمرِ  
وورث هرون ابنه تاج ملكه      كذاك أبو الأشبال ذو الناب والهضرِ  
تذكرتهم لما مَضَوْا فتتأبَعوا      كما ارفَضَ سلك من جمانٍ ومن شذرِ  
فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله      لفقدهم فليبك حزنًا على مصرِ (1)

وقد انتهى هؤلاء الشعراء إلى حقيقة مهمة، هي أن الأيام دول، ولا خلود لإنسان أو دولة، إنما البقاء والخلود لله سبحانه وتعالى، وتظهر هذه الحقيقة في قول أحمد بن أبي يعقوب:

وانظر إلى تلك القصور وما حوت      واسرُح بزهرة ذلك البستانِ  
وإن اعتبرت فيه أيضًا عبرةً      تُنبئك كيف تصرّف العصرانِ (2)  
وتظهر أيضًا في قول إسماعيل بن أبي هاشم:  
والله وارث كل حيٍّ بعدهم      وله البقاء وكل شيءٍ فانِ (3)

وبتلك الأبيات التي أوردناها أمثلة شاهدة على هذا النوع من الشعر، نستطيع أن نقول: إن الشعراء المصريين أخذوا منه بنصيب وافر، وكانوا سابقين على إخوانهم في المشرق والمغرب؛ إذ لم يسبق لنا أن عثرنا على بكائيات في دول أخرى قبل هذا الشعر الذي قيل في مصر.

وهذا الحكم الذي أطلقناه، يمكن أن نبطل الرأي الشائع بين الدارسين من أن الأندلسيين هم الذين ابتكروا هذا الفن في الأدب العربي.

(1) الخطط، ج 2، ص 119، 120؛ وانظر: الولاة والقضاة، ص 253 وما بعدها.

(2) الولاة والقضاة، ص 250.

(3) الخطط، ج 2، ص 123.

**ب- النشر**

وجدت فنون نثرية في العصر الطولوني كان أهمها ما يلي:

**أ- الخطابة:**

كان لا بد أن تستمر الخطابة؛ وذلك لحاجة المجتمع الإسلامي إليها، ولكن لم يكن لها في ذلك العصر ما كان للكتابة من شأن؛ ومن ثم يمكن القول إن قيام الكتابة وازدهارها في تلك الفترة أصاب الخطابة بالوهن، بالإضافة إلى ما عرف عن ولاة ذلك العصر عامة من ضعف في اللغة، ولكن لا يجب أن نسلم بفنائها أو ذهابها، وإنما يمكن القول إن دواعي ازدهارها قد قلت، وإن ما بقي منها تغلب عليه المسحة الدينية، وكان لا بد أن تشتمل على دعاء للخليفة ومن يحالفه، وربما ذلك بصيغ معينة.

**ب- الكتابة:**

ازدهرت الكتابة في العصر الطولوني؛ وذلك لحاجة الطولونيين إليها، وبسبب وجود ديوان الإنشاء، الذي قام عليه مجموعة من الأدباء المعروفين بالبلاغة، على رأسهم ابن عبد كان، الذي حفظ لنا صبح الأعشى كثيراً من رسائله ومكاتباته<sup>(1)</sup>.

وقد كان للكتابة الطولونية خصائص، يمكن إجمالها فيما يلي:

- 1- افتتاح الرسائل الديوانية بقولهم: "من فلان إلى فلان".
- 2- افتتاح الرسائل الإخوانية بالدعاء وطول البقاء ودوام النعمة.
- 3- الدعاء بصيغ معينة، مثل: "جعلت فداك"، أو بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة وطيب الحياة.
- 4- اختتام الرسائل بالأدب والتلطف والتكلف في القول.

(1) صبح الأعشى، القلقشندي، ج 1، ص 95، ومواضع متفرقة.

وانظر: ابن عبد كان وفن الرسائل في مصر الطولونية، د. غريب محمد علي، مجلة كلية الآداب بقتنا، عدد 10، سنة 2000م.

## ج- القصص:

ظهر في ذلك العصر كتاب قصصي منظم، يعد من أقدم كتب القصص لدينا، وهو كتاب مصري، ونعني به كتاب "المكافأة" <sup>(1)</sup> لأحمد ابن يوسف بن إبراهيم.

وهذا الكتاب عبارة عن قصص قصيرة لحوادث جرت للمؤلف، أو رواها عن غيره، وكلها يدور حول المكافأة على الإحسان أو الإساءة على القبيح، وقد جعل كلمة المكافأة شاملة للنوعين، وهو يحتوي على إحدى وسبعين قصة، وينقسم ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** المكافأة على الحسن، ويشتمل على إحدى وثلاثين قصة، تحث الإنسان على فعل الخير، توقعًا للمجازاة بالخير.

**القسم الثاني:** "المكافأة على القبيح"، ويشتمل على إحدى وعشرين قصة، تحذر من فعل الشر؛ خوفًا من سوء المجازاة بالشر.

**القسم الثالث:** ويشتمل على تسع عشرة قصة، تدور حول من وقع في شدة، ثم خلص منها، وكان عرضة لضياح ماله أو فقدان نفسه، فرد إليه ماله، ووهبت له نفسه، وقدم الكاتب للكتاب بمقدمة تبين فضل هذه القصص، ثم ختم الكتاب بحكم مروية عن السابقين في قيمة الصبر واحتمال الشدة.

ولهذا الكتاب قيمة أدبية وأخلاقية وتاريخية:

أما الأدبية:

ففي أسلوب المؤلف في عرض القصة؛ إذ إنه أسلوب جزل رصين، يحكم التعبير عن المعنى بأوجز عبارة وأمتنها وأقواها، والعبارة سهلة مناسبة للموضوع، حتى صار الكتاب بسهولة خليقًا بأن يدرسه متوسطو طلاب العربية في غير ملل، ويدلنا الكتاب على أثر من آثار الثقافة المصرية الخالية من الفلسفة والمنطق.

(1) انظر: هذا الكتاب بتحقيق وتصحيح: أحمد أمين وعلي الجارم، ط المطبعة الأميرية، مصر، سنة 1941م.

### وأما من الناحية الأخلاقية:

فقد التزم الكتاب عرض قصص تدل على النبل والمروءة، وعلى مجازاة الحسن بالحسن، والقبيح بالقبيح، والحث على الصبر عند الشدائد، وهذا ضرب من ضروب التعليم بالمثل، والحق أن فكرة الكتاب كلها أخلاقية، تحمل قارئه على التمسك بأهداب الإحسان؛ لأنه يحتاج إلى المكافأة على ذلك، فإن لم ينلها في نفسه نالها في عقبه، وهكذا لا يضيع الإحسان أينما وضع، كما أن فيه إنذارًا للمسيء بأن يلقي جزاء إساءته فلا يفلت منها.

### وأما الناحية التاريخية:

ففي الكتاب قصص تاريخية، توضح بعض ما جاء في كتب التاريخ، وقصص مصرية طولونية، تدل على نواح كثيرة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر. هذا بالإضافة إلى ما له من قيمة في تاريخ الأدب؛ فالكتاب عظيم الفائدة والقيمة من ناحية دلالاته على الأسلوب الأدبي في مصر في العصر الطولوني، وما كان يستعمل من عبارات مصرية أدبية، هُجر بعضها، وبقي بعضها.

\*\*\*